

ميجيل إرنانديث

مرثيتان

ترجمة وتقديم: أحمد حسان

[مجلة القاهرة، العدد 15/73 يوليو 1987]

يموت شاعرٌ فيحسُّ الكونُ
أن بأحشائه جرح الاحتضار.

هذا زمان المراثي. كل يوم يموت مبدع امتلاً بحب البشر، أو تلاحقنا ذكرى مبدع مات مدافعاً عن حقهم في الحياة.

هذا زمان المراثي. والذاكرة لعنتنا وملأنا. نلوذ فيها بصور أيام تهزّ القلب بما امتلأت به من العاطفة، والحياة، وحتى الموت، وننتظر أياماً تحرك النار تحت رماد أيامنا.

مع حلول ربيع عام 1987 اكتمل العام الخامس والأربعون لموت شاعرٍ كان يعتبر الشعراء ريح الشعب، يولدون ليترّوا صافرين خلال مسامه ويوجهوا أبصاره ومشاعره نحو أجمل القمم. إنه ميجيل إرناندث الذي مات في سجون فرانكو (في 28 مارس 1942) ولم يتعدّ بعد الثانية والثلاثين. وقبل عامين، لحقه إلى مملكة الموت أستاذه وصديقه ورفيقه الحميم بيثنتي أليكسندري، الذي أهدى إليه إرناندث ديوانه "ريح الشعب" وخاطبه فيه بقوله: "إن صوتك وصوتي ينبعثان من نفس النبع. ما أفقده في قيثارتني، أجده في قيثارتك. لقد منحتماني، پابلو نيرودا وأنت، براهين من الشعر لا تُمحي، والشعب الذي أمدّ نحوه كل جذوري يُغذي أشواقي وأوتاري باللفحة الساخنة لحركاته النبيلة."

أمّا نيرودا، الذي احتضن شاعرنا عندما ذهب يطرق أبواب الأدب في مدريد، فقد وطّأته هو الآخر، منذ أربعة عشر عاما، أقدام الفاشية التي كانت طوابيرها المنتصرة قد وطّأت من قبل شاعرنا بعد أن قتلت وشرّدت رفاقه.

شاء القدر أن يكون ميغيل إرناندث شاهدا استثنائيا على التحولات التي شهدتها الشعر الإسباني في منتصف الثلاثينات والتي رافقت الهزّة العميقة التي أحدثتها في المجتمع وفي وجدان المبدعين الشباب إقامة الجمهورية ثم نشوب الحرب الأهلية عام 1936.

إن التفاعل المُجدّد للمذاهب الأدبية، والنقاء الغنائي، والتسامي الباروكي، والغليان السوريلي، وما سُمّي بنزع إنسانية الفن، كانت كلها تيارات جمالية مختلطة ومتناقضة شهدتها الشعر الإسباني على أيدي شعراء جيل 1927، وشكّلت الميراث الذي ورثه جيل 1936 من الشعراء والذي كان إرناندث شخصيته النموذجية.

كان الاستقبال الويّ الذي تلقّى به جيل 1927 الديوان المطبوع الأول لإرناندث "البرق الذي لا يخبو" (1936) يجعل إرناندث يبدو أحيانا وكأنه واحد من جماعتهم، أو كأنه "الكاتب الصغير العبقرى" بينهم بتعبير داماسو ألونسو.

لكن الواقع أن الشعر كان قد حوّل بصره إلى وجهة أخرى مع احتدام الصراع الاجتماعي. تمثّل إرناندث، مع أبناء جيله، تناقضات الباروك، من خلال جونجورا، الذي أجمع على توقيره شعراء 1927. وقدّ جارثيلاسو، وأدرك المعنى الكوني والمدبر للذات الذي تنطوي عليه قوة الحب في شعر بيثنتي أليكسندري. وفتح مع نيرودا نوافذه على الصراع الدائر حوله. ومن ثم فاجأته الحرب الأهلية في أكثر الأوضاع ملاءمةً لتبلور شعره على أساس قناعاتٍ أساسية اكتسبها في خضمّ التحولات: فقد أصبح الشعرُ بالنسبة له جوهر الشعب الذي يجد جذوره

في الأرض؛ والشاعر هو مفسّر و مترجّمي لمشاعر جماعية، ومهمته توجيه بصر وقلب الناس إلى الحقائق الشعرية التي هي أجمل القمم، والتي تمثل انعكاس الحقائق المعاشة؛ وقدر الشعر، لهذا السبب، هو أن ينتهي بين أيدي الشعب، كما كتب لأليكسندري.

لم يُبل سراويل كثيرة على مقاعد الدرس. فقد دفع الفقر أباه إلى انتزاعه من المدرسة مبكرا ليساعده في الرعي وفي توزيع الحليب على البيوت. لكنه لم يكف عن تقيف نفسه ملتها كل ما يصل إلى يديه من كتب. وواظب على الاجتماع، في أحد دكاكين القرية، مع حلقة من الأصدقاء يكتبون ويتناقشون. كانوا أول المستمعين إلى شعره والمتحمسين له. وكان من أقربهم إليه رامون سيخي، الذي "مات عنه كمن صعقه البرق". والذي رثاه شاعرنا وهو يتهجى مفردات فقدان والغياب التي ستكبر معه. نفس الأصدقاء جمعوا دراهمهم القليلة ليتيحوا له تذكرة الدرجة الثالثة إلى مدريد ليقدم نفسه إلى أدبائها وليثير فيهم الإعجاب والدهشة لبساطته وتواضعه وحيويته السابغة.

هناك صادق أليكسندري ورأى نيرودا أن رأسه الشبيهة بثمر البطاطس المنتزعة حديثا من الأرض تحمل روحا جديدة ستفتح للشعر الإسباني أفقا جديدا.

وحين نشبت الحرب الأهلية لم يتردد في الانضمام إلى قوات الجمهوريين. وانخرط في "ميكروفونات الجبهة" وأخذ يكتب الأشعار ويلقيها في الخنادق للجنود الجمهوريين ومن خلال مكبرات الصوت للجنود المناهضين. واتسع شعره ليضم المرثية، والتمجيد البطولي، والتهكم المقاتل، والموضوعات الاجتماعية. وامتزجت الهموم الاجتماعية بهموم الحب كما امتزجت نزعتة الغنائية بعناصر ملحمية تعبر عن معانيات وآمال المجموع. وظل جوهر شعره الحب للأرض وللشعب الذي يؤد أن يدافع عنه بالغناء ويدين أعداءه.

وعند هزيمة الجمهوريين قُبِض عليه عند محاولته الفرار سباحةً إلى البرتغال وأخذ يذرع السجون حتى مات تحت وطأة حزمة من الأمراض.

وطوال حكم فرانكو ظل شعره محظوراً على مواطنيه. لكنه بقي مثل بذرة دفيئة استمدّ منها شعر ما بعد الحرب واحداً من أقوى المؤثرات التي أسهمت في تجديده.

كان إرناندث يؤمن بأن كل شاعر يموت يترك بين يديّ آخر آلة موسيقية، ميراثاً يأتي من أزلية العدم إلى قلوب الشعراء المبعثرة. لكن كيف نرثي شاعراً كهذا؟

ليس أفضل من أن نرثيه بلسانه. وها هما اثنتان من مراثيه. الأولى في رثاء رامون سيخى من ديوان "البرق الذي لا يخبو"، والثانية في رثاء لوركا، الذي اختطفوه من الحياة شاباً فكان لموته وقع الصاعقة. وتتصدّر مرثية لوركا ديوان "ريح الشعب" الذي أهداه الشاعر إلى أليكسندري، الذي ظل يتذكر صديقيه حتى رحل عنا منذ عامين.

مرثيتان في رثاء عصرٍ مجيدٍ كامل نحت إرناندث عذاباته وأشواقه من رخام الكلمات النابض الحارق. ندير أعيننا إليه أملاً في عصرٍ مجيدٍ قد يأتي، ونتذكر ألاّ عزاء في فقدان شاعرٍ سوى أن تستقر قيثارته بين يديّ آخر.

مرثية

(في أوريويلا، قريته وقريتي، مات عني كمن صعقه

البرق رامون سيخي، الذي شدّ ما تحاببنا)

باكياً، أودُّ أن أكون

بستانيّ الأرض التي تشغلها وتُخصبها،

يا رفيق الروح، قبل الأوان.

بينما ألمي، الذي لا يجدُ مُتنفّساً

يُغذي الأمطارَ، والمحاراتِ، وآلاتِ الأرغن،

سأمنحُ قلبك غذاءً

للخشخاشات الواهنة.

من فرطِ ما يجتمعُ في جنبي من ألمٍ،

ألماً يؤلمني حتى النفس.

صَرَعتْكَ لَطْمَةٌ قَوِيَّةٌ، ضَرْبَةٌ ثَلْجِيَّةٌ،
بَلْطَةٌ خَفِيَّةٌ وَقَاتِلَةٌ،
دَفْعَةٌ وَحْشِيَّةٌ.

ما من امتدادٍ أَكْبَرُ من جرحي،
أَبْكِي مَصِيبَتِي وتضافرها عليَّ
وَأُحِسُّ بِمَوْتِكَ أَكْثَرَ مما أُحِسُّ بِحَيَاتِي.

أَسِيرُ فوق بقايا أَعْوَادِ الْمُتَوَفِّينَ،
وَدُونَ دَفءٍ من أَحَدٍ وَدُونَ عِزٍّ
أَمْضِي من قلبي إلى شئوني.

مُبَكِّرًا بَدْءَ المَوْتِ تَحْلِيْقَهُ

مُبَكِّرًا بَكَرَ الْبُكُورُ
مُبَكِّرًا تَتَدَحْرَجُ فِي التَّرَابِ.

لَا أَغْفِرُ لِلْمَوْتِ الْعَاشِقِ،
لَا أَغْفِرُ لِلْحَيَاةِ الْغَافِلَةِ،
لَا أَغْفِرُ لِلْأَرْضِ وَلَا لِلْعَدَمِ.

فِي يَدَيَّ أَرْفَعُ عَاصِفَةً
مِنَ الْأَحْجَارِ، وَالْبُرُوقِ، وَالْبَلْطَاتِ ذَاتِ الصَّرِيرِ
عَطَشَى لِلنَّكَبَاتِ وَجَائِعَةً.

أَوَدُّ أَنْ أَعْصِيَ الْأَرْضَ بِأَسْنَانِي،
أَوَدُّ أَنْ أُمَزِّقَ الْأَرْضَ جُزْءًا جُزْءًا
بَعْضُضَاتٍ جَافَةٍ وَسَاخِنَةٍ.

أودُّ أن أحفُرَ في الأرضِ حتى ألقاك
وأقبلُ جُمُعتك النبيلة
وأحرّرَ فمك وأعودُ بك.

ستعودُ إلى بُستاني وتينتي:
فوق الدعاماتِ العاليةِ للأزهارِ
ستُحلّقُ روحك راعيةُ النحلِ

ذاتَ خلايا الشهدِ الملائكيةِ والنفحاتِ.
ستعودُ إلى هدهدةِ شقوقِ الأرضِ
التي يحزُّها الأجرأُ العاشقونَ.

ستُهبّجُ ظلَّ حاجبيّ،

وستمضي خطيبُك والنحلُ
إلى كلّ صوبٍ مُتنازِعِينَ دَمَكِ.

قلْبُك، الذي صار مَحْمَلاً مُجَعَّداً،
يدعو إلى حَقْلِ من اللوزاتِ الزَبَدِيَّةِ
صَوْتِي النِّهَمَ المُحِبِّ.

إلى الأرواحِ المُجَنَّحَةِ بلونِ القشدةِ
لُورودِ اللّوزِ أَدْعوكِ،
فعلينا أن نتحدَّثَ عن أشياءَ عَدِيدَةٍ،
يا رفيقَ الروحِ، يا رفيقَ.

(10 يناير 1936)

مرثية أولى

(إلى فيديريكو جارشيا لوركا، شاعر)

الموتُ، بالحِرابِ الصدئة
وفي زِيِّ القتال، يعبر القفار
ليمطر ملحاً، وينثر جماجم،
حيث يزرعُ الإنسانُ جذوراً وآمالاً.

يا خُضرةَ الانساعاتِ،
متى تسودُ البهجة؟
الشمسُ تُخترِّ الدّم، تغطّيه بالفخاخ
وتجلبُ الظُّلْمَةَ الأشدَّ حلْكةً.

الألمُ وعباءته

يجيئان مرة أخرى للقائنا.
ومرة أخرى أدخُلُ مُنهمراً كالمطر
إلى درب النحيب.

دائماً ما أراني
داخل ظلِّ الصَّبَّارِ الخشنِ هذا
المُزدحم بالعيونِ والتمتاتِ،
الذي على مدخله قنديلٌ من العذاب
وعقْدٌ محمومٌ من القلوب.

وددتُ لو أبكي داخل بئرٍ،
في ذاتِ الجذرِ الأسيانِ
للماءِ، للشهقة،
للقلب:

حيثُ لا يرى أحدٌ صوتي ولا نظرتي،
ولا بقايا دموعي.

أَدْخُلْ وئيداً، تَخِرْ جبهتي
وئيداً، يَنْفِطِرْ قلبي
وئيداً، ومُتَّئِداً وحالكا
أَعُودُ للبكاء عند قدم قيثارة.

من بين كلِّ موتى المراثية،
دون نسيان صدى أيَّهم،
تنتقي يدٌ نحبي واحداً
لأنَّهُ رَنَّ في روعي أكثر منهم.

فيدريكو جارتيا

حتى الأمس كان يُدعى: واليوم يُدعى تراباً.

بالأمس وجد مكاناً تحت ضوء النهار

واليوم يضمُّه القبرُ تحت العشب.

شَدَّ ما كان! شَدَّ ما كُنْتُ وها لم تُعَد!

بهجتُك المُتَوَبِّة،

التي كانت تُهَيِّجُ طوابيرَ وجنوداً،

تنزعُها من بين أسنانك وتُلقيها،

وها أنت تُصبحُ حزيناً، ولا تعودُ تشتهي

سوى فردوسِ التوايت.

لو نهضتُ لرأيتُك بين الحاجبين

مُرتدياً هيكلاً عظيماً،

راقداً في الرصاص،

مُتَحَصِّنًا بِاللَّامِبَالَةِ وَالْجَلَالِ.

الريُّحُ الَّتِي تَجْرِفُ الْأَسَابِيعَ
جَزَفَتْ حَيَاتَكَ، حَيَاةَ ذَكَرِ الْحَمَامِ،
الَّتِي كَانَتْ تَلُفُّ بِالزَّبَدِ
وَبِالْهَدِيلِ السَّمَاءَ وَالنَّوَافِدَ
كَطُوفَانٍ مِنَ الرِّيشِ.

يَا بَنَ عَمَّ الثُّقَّاحَاتِ،
لَنْ يَقْدِرَ عَلَى نَسْغِكَ السَّوْسُ،
لَنْ يَقْدِرَ عَلَى مَوْتِكَ لِسَانُ الدُّودِ،
وَحَتَّى تَمْنَحَ ثَمَرَتَهَا عِنْفَوَانًا وَحَشِيًّا
سَتَخْتَارُ شَجَرَةَ الثَّقَّاحِ عِظَامَكَ.

بِنِعْ لُعَابِكَ وَقَدْ طُمِرَ،

يَابْنَ الْحَمَامَةِ،

يَا حَفِيدَ الْقُبْرَةِ وَالزَيْتُونَةِ:

دوماً سَتُصْبِحُ، بَيْنَمَا الْأَرْضُ تَرُوحُ وَتَجِيءُ،

زَوْجاً لِنَبْتَةِ الْخُلُودِ،

أَباً مُخْصِيباً لْجُرَيْمَةِ الْجَدِيِّ.

مَا أَبْسَطَ الْمَوْتَ: مَا أَبْسَطَهُ،

لَكِنْ يَا لَهُ مِنْ مُغْتَصِبٍ جَائِرٍ!

لَا يَعْرِفُ السَّيْرَ وَثِيْدًا، وَيَطْعُنُ

فِي أَقْلٍ اللَّحْظَاتِ تَوْقَعًا لَطَعْنَتِهِ الْعَكِرَةِ.

أَنْتَ، يَا أَكْثَرَ الصُّرُوحِ شُمُوخًا، مُهْدَمٌ،

أَنْتَ، يَا أَعْلَى الْبَوَاشِقِ تَحْلِيْقًا، مَنْزُوعُ الرِّيشِ،

أنت، يا أقوى زئير،
صامت، أشد صمتاً، أشد صمتاً.

فليسقط دمك البهيج، دم الرمان،
كما تهوي المطارق العاتية،
على من كتم أنفاسك.
ولتسقط البصقات والمناجلُ
فوق البقعة التي تُخَصِّبها جهنمه.

يموت شاعرٌ فيحسُّ الكونُ
أنَّ بأحشائه جرحَ الاحتضار.
زلزلةٌ كونيةٌ من الرجفات
تصدِّعُ الجبالَ برهبة،
ويصدِّعُ بريقُ الموتِ رَجمَ الأنهار.

أَسْمَعُ قُرَى من الآهاتِ وودياناً من العويل،
أرى غابةً من العيونِ التي لا تَحُفُّ أبداً،
طُرُقاً من الدموع والعباءات:
وفي دَوامةٍ من الرياحِ وأوراقِ الشجر،
حِداداً إثر حِدادٍ إثر حِداد،
نحيباً إثر نحيبٍ إثر نحيب.

لن يجرفوا عِظامك، لن يُذَرُّوها،
يا بركانَ الرحيقِ، يا إعصارَ أقراصِ الشهد،
أيها الشاعرُ المصفورُ، الحلو، المرُّ،
يامن في حرارة القُبلات
أحسستَ، بين صفّين مُمتدّين من اللكّات،
حُبّاً مُمتداً، وموتاً مُمتداً، ولهباً مُمتدّاً.

لكي تُصاحبَ موتَكَ،

تأتي لترحمَ كلَّ أركان

السَّماءِ والأَرْضِ حُشودٌ من النعم،

بُروقٌ ذاتُ ذبذباتٍ زرقاء.

صاجاتٌ تنهالُ أَكْواماً،

أفواجٌ من المزامير، والطبول والفجر،

أسرابٌ من النَّحلِ الطَّنَّانِ والكمنجات،

عواصفٌ من القيثاراتِ وآلات البيانو،

ودفقاتٌ من آلاتِ النَّفخِ والأبواق.

لكن الصمتَ أبلغُ من كلِّ تلك الآلات.

صامتاً، وموحِشاً، ومترباً

في الموتِ الموحش،
يبدو كأنَّ باباً أُغلق
فحبَسَ لسانك، ونَقَسَك.

أخطو مع ظِلِّي
وكأنتي أخطو مع ظِلِّك
عبرَ أرضٍ يفتَرشها الصمتُ
ويروقُ للسِرِّ أن يجعلها أشدَّ ظُلْمَةً.

عذابك يُطَوِّقُ حلقي
كجبلٍ مشنقةٍ
وأَجْرَبُ شراباً جنائزياً.
أنت تعرفُ، يا فيديريكو جارشيا لوركا،
أنتي ممَّن يُعاقرونَ موتاً يومياً.

